

أثر التراث الشرقي في أصول المذهب السني د. علي إسباني

تولى عثمان خلافة المسلمين فأثر خاصته وأقرباءه من بني أمية بالسلطة والثراء، مما أثار حفيظة كثير من المسلمين في البصرة والكوفة ومصر، واشتد لذلك ساعد الهاشميين وأنصارهم الذين أفلت منهم زمام الخلافة ثلاث مرات، ونتيجة لذلك برز حزب معارضة قوي جمع نزعات مختلفة تهدف كلها إلى الإطاحة بعثمان، ولئن لم يعرف هذا الحزب تنظيماً أول أمسه فانه قد استطاع بمرور الأيام أن يجمع صفوفه من خلال المتناقضات المتزايدة التي عاشتها الخلافة والأمصار على السواء، تلك التي نظر إليها ولاة عثمان على أنها مستعمرات خصّهم بها أو بساتين لهم ولقبيلتهم طبقاً لتعبير سعيد ابن العاص والي عثمان على الكوفة. (1) وقد أذكى غضب المسلمين هذا الواقع الأليم من جهة والمبادئ الإسلامية في سموها ودعوتها إلى العدل والمساواة من أخرى، ولم يكن العامل الإقتصادي وحده هو الذي فجّر غضب المسلمين وثورتهم كما يبدو لأول وهلة بل أن مبدأ الإسلام الذي لا يفضل بين الدين والسياسة، بين مختلف العوامل التي يموج بها المجتمع هو الذي فجّر هذه الثورة وجمع لها أنصاراً من مختلف الأصقاع؛ في هذه الفترة الحرجة من حياة الخلافة يظهر عبد الله بن سبأ كمزرم للفتنة ومنظم لهذه الحركة في مختلف الأمصار، ويرفضه للواقع وحينئذ إلى الماضي استطاع أن

(1) قال سعيد لوجوه أهل الكوفة (إنما هذا السواد بستان لقريش)
الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، دار المعارف 1963 ، 323/4 .

يجمع شتات كل الثائرين، إذ اتسعت نفسه لكل ما في انفسهم. يتفق الطبرى السنّي (310/922) والنوبختي الشيعي (310/922) (1) على أنه كان يهوديا أسلم ليؤكد للإسلام من الداخل ويثبت الفتنة بين المسلمين، ويسعفا الطبرى كمادته بأخبار ضافية عنه وعن أتباعه «السبئية» بحيث تشكل المصدر الأساسي من بين سائر المصادر السنية والشيعية والخارجية لدراسة هذه الحركة وأهدافها الظاهرة والخفية (2). وطبقا لما يرويهِ الطبرى فهو يمني من صنعاء أمه سوداء (3) جاء إلى المدينة وأسلم زمن عثمان؛ وبعد احتكاكه بالحياة الدينية والاجتماعية السائدة هناك واتخاذها منها موقفا محددا يتسم ببغض الخليفة وذويه لما بدر منهم من نزوع الى الثورة ومن استئثار بالسلطة أخذ يتصل بالمسلمين في الحجاز

(1) تاريخ الرسل والملوكة : 4/340 ، فرق الشيعة ، دار الفكر بيروت 27 ، وقارن ما جاء في المقالات والهرق لابي خليف الاشعري القمي (ف 301) ، طهران 1963 ، ص 20 - 21 ، الذي اعتمد كتاب النوبختي .

(2) راجع مثلا الطبرى 4/331،340،346،403،436،438،541 .

(3) نفلن أنها حبشية من تلك الجالية التي استوطنت اليمن اثر الاحتلال الحبشى ، أما أبوه فيمنى . ومن الثابت تاريخيا ان التزاوج بين الاحباش واليمنيين أنتج فى اليمن سلالة هجينة يعتبر عبد الله بن سبا أحد أفرادها ، وإلى هذه السلالة يشير الكميّ فى مفاخرته بالنزارية على اليمن .

لنا قمر السماء وكل نجم

تشير اليه أيلى المهدينا

وجلت الله اذ سمى نزارا

واسكنهم بمكة قاطنيننا

لنا جعل المكارم خالصات

وللناس القفا ولنا الجيونا

وما وجلت بنات بنى نزار

حلائل اسودينا واحمرينا

ويكشف لهم عن مساوئ هذا العهد ويحرضهم على الثورة (1) وكانت النفوس مستعدة ففي الوقت الذي شمت فيه السلطة الحاكمة تآقت الى العهد الذهبي للخلافة عهد أبي بكر وعمر الذي كان امتدادا لحكم الرسول، وتداخلت في الاطار أمشاج كانت قد تأكدت قبل هذا العهد، فمن ايمان بأحقية بني هاشم بالخلافة الى التيقن بأن علياً قد سلبت منه الخلافة ثلاث مرات إلى نزوات كانت تطل في الأفق تهفو الى ما كان سائدا في الشرق القديم. وبعد تطوافه في الحجاز انتقل داعية للثورة الى البصرة سنة ثلاث وثلاثين، ثم الكوفة ثم الشام. (2) وكان نجاحه فيها محدودا، وفيما عدا الخبر الذي يرويهِ الطبري عن ابن سبأ من أنه اتصل هناك بأبي ذر وألهمه فكرة الكنوز الماثورة كما يتضح من قوله «يا أبا ذر ألا تعجب الى معاوية يقول : المال مال الله. ألا ان كل شيء لله كأنه يريد ان يحتجبه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين» (الطبري 283/4) فان سائر المصادر تتفق على أن أهل الشام قد انصرفوا عن دعواه الى تعضيد معاوية والبيت الاموي، فخرج منها الى مصر حيث زكت دعوته واعتنق أهلها الناقمون آراءه، وثورته على الخليفة، (3) وكما قال ابن عساكر في تاريخه «طاف بلاد المسلمين ليفتنهم عن طاعة الائمة ويدخل بينهم الشر وكذلك فتن الناس بساباط المدائن اثناء اقامته بها منفيا من طرف علي اثر

(1) الطبري 340/4 ، ويرى المؤرخ الفارسي مير خواند في «دوحة الصفاء» طهران : 160/2 ان السبب في حقد ابن سبأ على عثمان هو «انه كان يأمل حين قدومه الى المدينة في الكرام الخليفة له ، ونصه (فلما لم يحصل له ما اراد اخذ يتصل بالناقمين عليه وينكر على عثمان ادارته علنا ويلسغ عثمان خبره اخيرا فقال : من هذا اليهودي الذي التحمل منه هذا ؟ وامر بنفيه من المدينة ثم ذهب الى مصر وصار من المشاغبين العاملين ضد عثمان) .

(2) الطبري 340/4 HODGSON : in E.i. art. Abd... b. Sabâ
(3) ابن كثير : البداية والنهاية ط مصر ، 168/7 ، والملاحظ ان عبد الحميد بخيت دافع عن المصريين في كتابه « عصر الخلفاء الراشدين ، ط الثالثة دار المعارف ، 1967 ، ص 307 - 308 ، دفاعا عاطفيا القصد منه التقليل من أهمية مشاركتهم في الفتنة السبئية التي اودت بحياة الخليفة عثمان ، وذلك شأن لا صلة له بالبحث العلمي .

غلوله فيه. (1) ولما قتل علي رجع الى الكوفة واستقر فيها، ولا نعرف من أمر حياته بعد ذلك شيئاً إلا ما أشار اليه المهدي المرتضى من أنه «استمال قوماً من أهلها في سب الصحابة» (2). وقد مرت دعوته بمرحلتين : الأولى يبرز فيها مستغلاً نقاط الضعف في خلافة عثمان مركزاً على الأثر والاستغلال اللذين بدرا من الأمويين ونراه بذلك قد صرف جهوده إلى الواقع الأليم الذي عاشه المسلمون يصفه ويحلله ويدعو إلى الثورة عليه، فألف حوله - وفقاً لتعبير المقرئ في الخطط - عدة أتباع في عامة الأمصار، عدا الشام، سموّاً بالسبئية. والمرحلة الثانية يبرز فيها إلى ذلك منادياً بآراء عرفتها حضارات الشرق القديم، وكانت أرض مصر منطلق هذه المرحلة، ولئن لم يوفق في بلاد الشام فإن ما حققه من انتصار في البصرة والكوفة ومصر بتأليب المسلمين على خليفتهم، كان كافياً لأن يقض مضاجع الطبقة المترفة التي بدأت تتكون في ظل عثمان (3). وبث ابن سبأ دعائه في الأمصار كما اتصل بخلصائه فيها وحرّضهم على الدعوة إلى الثورة وعلى التخفي في ذلك حتى لا تفتك بهم يد السلطة، وأخذ نشاطهم يتسع كلما عنت شراة الحاكمين ونزعتهم القبلية المستحكمة. فبدأوا أولاً بالتشجيع على الولاة في سائر الأمصار وأخذوا يكتبون إلى بعضهم

(1) لوى ماسينيون : سلمان الفارسي والبواكير الروحية للإسلام في إيران ، من كتاب : شخصيات قلقة في الإسلام ترجمة عبد الرحمان بدوي ، مكتبة النهضة المصرية 1946 ، ص 24 .

(2) الملل والنحل : تحقيق محمد جواد مشكور ، تيريز 1959 ، ص 7 .

(3) نجح ابن سبأ في مصر بسبب المظالم التي أنزلها الوالي عبد الله بن أبي سرح بها ولما كان يتراعى إليها من أنباء مفرجة عن وضع الخلافة ، كما نجح ابن سبأ في البصرة والكوفة لكونهما موثلاً للأجناس والحضارات المختلفة فقد كانتا تموجان بالآراء والأهواء ، فهما الوريثتان لعاصمة الساسانيين « المدائن » فقد انتقل مجتمع المدائن إليهما وكان من الطبيعي أن تكون هاتان المدينتان مفتوحتين لكل هوى ولكل جديد بالإضافة إلى ما شهدته من مظالم في ظل ولاة عثمان الذين عرفوا بالتهتك والانحلال راجع عن البصرة والكوفة والمدائن : معجم البلدان ، وعن المدائن خاصة . E. i. : art. par STRECK.

وأيضاً تعليقات محمد جواد مشكور على كتاب «المقاتل والفرق» القمى ص 162

كلّ يهتجن الوالي في مصره فيتسع نطاق الكراهية وتحتدّ الضغينة ويشفق أهل كل مصر على المصر الآخر، وظلّت المدينة في عزلة وقتية عن هذه الدوامة كخطة رسمها السبئية، إلاّ أن أخبار المظالم بالكوفة، والبصرة ومصر كانت تسقط اليها في كل حين، فتثورق أهلها، وتدفعهم من غير أن يشعروا إلى المقارنة بين ما يسود المدينة وما يجري في سائر الامصار، فيزكو الحقد وتتأهب النفوس للثورة. وأنداك تناول السبئية الخليفة عثمان بالتهجين بعد ان كان حكرا على ولاته، كل ذلك في ظلّ الشعار الذي رفعوه وهو «الامر بالمعروف والنهي عن المنكر» وقد أعلم الخاصة الخليفة بما يجري فاندesh وطلب مشورتهم فقالوا له «نشير عليك أن تبعث رجلا ممن تثق بهم الى الامصار حتى يرجعوا اليك بأخبارهم. فدعا محمدا بن مسلمة فأرسله الى الكوفة، وأرسل أسامة بن زيد إلى البصرة، وأرسل عمار بن ياسر إلى مصر، وأرسل عبد الله بن عمر إلى الشام، وفرّق رجلا سواهم، فرجعوا جميعا قبل عمار، فقالوا : ايها الناس، ما انكرنا شيئا، ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم، وقالوا جميعا : الأمر أمر المسلمين، إلاّ أن أمراءهم يقسطون بينهم، ويقومون عليهم. واستبطأ الناس عمارا حتى ظنوا انه قد اغتيل، فلم يفجأهم إلاّ كتاب من عبد الله بن سعد بن أبي سرح يخبرهم أن عمارا قد استماله قوم بمصر، وقد انقطعوا اليه، منهم عبد الله بن السوداء، وخالد بن ملجم، وسودان بن حمران، وكنانة بن بشر» (1) - والحق ان علاج الوضع كان يحتاج الى اجتناب كل المبادل المستشرية والى تبني المطالب الشعبية التي يؤكدها الدين؛ فلا التهذؤة بناجعة ولا كراهة النائرين بمنكفئة دون الوصول الى القصد، لذلك لم يُجدد الحوار الذي جد بين الأطراف المتنازعة حتى لقد بدا كأنه حوار بين الصم. واشتدّ أمر السبئية في كلّ مصر وتكاثر الانصار لتغلغل الدعوة بين الطبقات الشعبية، وساعد على ذلك أن كبار الصحابة عليا وطلحة والزبير تقموا على الخليفة

واحجموا عن اعاقته (1) كما ان جمعا آخر منهم في مقدمتهم محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة وعمار بن ياسر كرهوا عثمان وآله فانضموا لهذه الحركة، فبدأ الخليفة المغلوب على أمره كأنه الاداة الهينة في أيدي الامويين والخلصاء، وتوافد الثائرون على المدينة من الكوفة والبصرة ومصر وبين المصريين الذين غلطوا الوالي وعيونه بأنهم يقصدون الخجاز للحج، عبد الله بن سبأ : ابن السوداء (الطبرى 349/4) وذلك سنة خمس وثلاثين، وقدموا مطالبهم الى الخليفة إلا أن "الطبقة المستغلة وجهته مرة أخرى فرفض مراجعة الموقف (2)، ونتيجة لذلك حاصره الثائرون وهاجموه في بيته وقتلوه. إن تجريد السيف لقتل خليفة المسلمين ليعتبر تحولا خطيرا في تاريخ الاسلام يرمز إلى تحطيم القداسة التي يمثلها، ويعبر في الوقت نفسه عن ممارسة المسلمين للواقع الديني في اتخاذه السياسة ميدانا للنشاط. هكذا سقط الخليفة تحت ضربات سيوف الثائرين بعد أن جمع شتاتهم عبد الله ابن سبأ بتنظيمه السري في مختلف الأمصار، فكانت هذه الفتنة البداية الاليمة لتلك الفتن التي مزقت العالم الاسلامي في العصور الوسطى.

أما شخصية عبد الله بن سبأ هذا فيحيط بها شيء غير قليل من الغموض هل هو شخصية حقيقية ؟ وهل هو غير ابن السوداء ؟ ام هو عمار بن ياسر ؟ ان من يستقرىء المصادر يجد أن شخصية هذا الداعية شخصية حقيقية عرفها التاريخ وعرف لها مروتها وقدرتها على التأثير، فالطبرى والنوبختي وهما أقدم من حدثنا عن هذه الحركة يؤكدان في غير لبس تاريخية هذا الداعية (3)

(1) فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ، ترجمة أبوريده ، القاهرة 1958 ، ص 48 - 49 .

(2) يدل على ان الشائرين يمثلون الطبقة الشعبية ما قالته عائشة في شأنهم حين قررت الثورة على علي « ان الغوغاء من اهل الامصار ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله صلعم وحدثوا فيه الاحداث وأبوا فيه المحدثين » واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله مع ما نالوا من قتل أمام المسلمين بلا ترة ولا عنر ... » (الطبرى 462/4) أما مطالبهم فتتمثل في قولهم لعثمان « اعزل عنا عمالك الفساق واستعمل علينا من لا يتهم على دماننا وأموالنا واردد علينا مظلالمنا (الطبرى 371/4) .

(3) الطبرى 340/3 ، النوبختي / 27 .

ويظهر من كلام الطبري أن عبد الله بن السوداء هو نفسه ابن سبأ، سمي بذلك تحقيرا له لأن أمه سوداء، ويؤكد المقرئ في «الخطط، بولاق، 334/2» وابن كثير في «البداية والنهاية، 356/2» هذا التتابع، معتمدين فيه كشأنهما على ما أورده الطبري، وينفرد عبد القاهر البغدادي (1037/429) في «الفرق بين الفرق» بالقول بأن ابن السوداء شخص آخر غير ابن سبأ، بيد أن الأفكار التي نسبها للأول هي نفس الأفكار التي نسبها للثاني معتمدا في الحديث عنهما رواية الشعبي (1) لا تؤدي إلا إلى أن الاسمين لشخص واحد أثرت عنه أفكار عرفها الشرق القديم، ولئن اقتفى أبوالمظفر الاسفراييني (2) أثر البغدادي في فهمه فإن سائر الذين كتبوا في الفرق والتاريخ في العصور الوسطى أكدوا تاريخية ابن سبأ، كما أكدوا نسبته إلى أمه السوداء تحقيرا لشأنه، (3) غير أن نصين وردا في العقد الفريد وفي تفسير علي بن

(1) **الفرق بين الفرق تحقيق محي الدين عبد الحميد، مصر، ص 233 - 234.** والشعبي وهو أبو عمر بن شراحيل كوفي شهر بالثقة والضبط، وهو أحد العلماء الأربعة الكبار، قال الزهري «العلماء أربعة: ابن المسيب بالمدينة والشعبي بالكوفة والحسن بالبصرة ومكحول بالشام»، توفي سنة 104.

(2) **التبصير في الدين ط الحانجي 1955 ص 108 - 109، وراجع أيضا Henri LAOUST الذي أخذ بهذا الزعم من غير أن يعد إلى مقارنة النصوص في كتابه Les Schismes dans l'Islam, Payot. Paris 1965, p. 15 ولا اعتبار بالنسب المفتعل الذي وضعه له صبحي الصالح في كتابه النظم الإسلامية، ط أولى، بيروت 1965، ص 93، «عبد الله بن سبأ بن السوداء» وقد أمعنا في تقصي المصادر الأساسية فلم نجد أحدا ينسبه بهذا الشكل كما لا اعتبار للاطلاق العاطفي الذي اصطنعه له عبد الحميد بخيت في كتابه عصر الخلفاء الراشدين ص 302، من أنه «الحبر الأسود عبد الله بن سبأ».**

(3) راجع مثلا ما قاله عن ابن سبأ أبو خلف القمي في **المقالات والفرق** ص 20، فقد ذكر أن اسمه «عبد الله بن وهب الراسبي الهمداني»، وقد ساعده على نشر آرائه اثنان من جلة أصحابه هما عبد الله بن حرس وابن أسود. ومن الممكن أن يكون البغدادي - وهو أول من قال بوجود شخص آخر إلى جانب ابن سبأ هو عبد الله بن السوداء - قد وهم فخلط بين ابن أسود وابن السوداء الذي هو حسب ما يفهم من الطبري - المعاصر للقمي والنوبختي - عبد الله بن سبأ نفسه.

ابراهيم القمي الشيعي يفيدان أن ابن السوداء هو عمار ابن ياسر مما قد يدفع الى الشك فيما ذهبنا اليه. يقول ابن عبد ربه «فقال معاوية لعمر بن العاص يا عمرو هذا المرء قال والله لئن زحف بالراية زحفا انه ليوم أهل الشام الإطول ولكنني أرى ابن السوداء الى جنبه يعني عمارا وفيه عجلة في الحرب وارجو ان تقدمه للهلكة» (1). وفي تفسير علي بن ابراهيم نص رواه المفسر بمناسبة الآية «يَمْنُونُ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا» «نزلت في عثكن بن معاوية يوم الخندق وذلك انه مرّ بعمار يحضر الخندق وقد ارتفع الغبار من الحفر فوضع عثكن كفه على أنفه ومر فقال عمار :

لا يستوى من يبني المساجدا يظلّ فيها راكعا وساجدا
ومن يمر بالغبار حايدا يعرض عنه جاحدا معاندا

فالتفت اليه عثكن فقال : يا ابن السوداء اياي تعني ثم أتى رسول الله فقال له : لم ندخل معك لسبّ أعراضنا فقال له الرسول : قد أقامتك اسلامك فاذهب، فانزل الله عز وجل «يَمْنُونُ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا...» (2) لكننا حين نمعن النظر في هذين النصين وفي الجو التاريخي الذي نبئت فيه تلك الأحداث ندرك أن الذين لم تعمقهم المثالية الاسلامية هم الذين اطلقوا هذه التسمية على عمار بن ياسر تحقيرا لأمره إذ عرف لديهم بمشابهته لابن سبأ في مناهضته لهم وفي إيمانه بأحقية علي في الخلافة بعد الرسول وفي أن أمه سوداء، واتساقا مع هذا المتزع الأموي في لمر عمار لمزا يقوم على تشبيهه بابن سبأ، وصفه يوسف بن عمر عامل هشام بن عبد الملك على الكوفة بالزنخي وفقا لما ورد في (التزاع والتخاصم بين أمية وهاشم للمقرئى مصر 1937 ص 43) «ان أول من فتح باب الفتنة وسفك الدماء علي وصاحبه الزنخي يعني عمار بن ياسر رضي الله عنه» ونرى أن هذه التسمية لعمار من صنع الطبقة المستغلة وفي مقدمتها الامويون

(1) العقد الفريد ، ط اولى ، الجمالية ، مصر ، 1913 ، 111/3

(2) تفسير علي بن ابراهيم القمي ، ط حجرية ، ص 642 .

لأمرين 1) يثبت نص ابن عبد ربه ونص المقریزی ونص علي بن ابراهيم هذا صراحة، لأن الحديث كان من أناس أمعنوا في مناوأة عمار، 2) يتنازع الشيعة والخوارج شخصية عمار بن ياسر فقد أغرتهم شخصيته النفاذة، وتحاول كلتا الفرقتين ان تجعل منه البداية المبكرة لمذهبها، فالشيعة يعظمونه ويعتبرونه أحد الأربعة الذين تشيعوا لعلي (عمار بن ياسر، المقداد بن الأسود، سلمان الفارسي، أبو ذر الغفاري) وآمنوا بأحقيقه في الخلافة إثر وفاة الرسول، والخوارج طبقا للنص الذي تقرر به أبو سعيد القاهاتي الاباضي في كتابه (الكشف والبيان) يجعلون عمارا ويعتبرونه رمزا لخارجيتهم، فانه قد أشار على علي أثناء صفين وقبل ظهور التحكيم بأن معاوية سيلجأ للتحكيم كطريقة للخداع والسطور على الخلافة، وعليه أن يرفض، لكن عليا حين عرض عليه التحكيم قبل دون أن يصغي لنصيحة عمار، فكان بذلك أول من رفض تحكيم الرجال (1)

1) قال سعيد لوجوه اهل الكوفة (انما هذا السواد بستان لقريش) مخطوط المتحف البريطاني 747 ورقة 96 ونظرا لاهمية هذا النص فاننا نورده بلفظه : روت الاخبار ان عمار بن ياسر قال لعلي : ان هؤلاء الناس سيقولون لك : بيننا وبينك كتاب الله فقل لهم : لقد حاربناكم لانكم حدثكم عن كتاب الله ، ويقولون لك : دعنا ننتخب حكيمين بيننا على ان تقبل اي حكم يصدرانه ، فقل لهم : انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ... واذا قالوا لك لنجعل هدنة للتفاوض من اجل السلم فقل لهم قال الله تعالى (فقاتلوا التي تبغى حتى تفسى الى امر الله ...) .

وقد ورد اليينا ان النبي قال لعمار بن ياسر (ستقتلك الفئة الباغية ، قاتلك سينهب الى النار) كما ورد اليينا كذلك انه أثناء تشييد مسجد المدينة كان كل مسلم يحمل آجرة واحدة للبناء بينما كان عمار يحمل آجرتين اثنتين الامر الذي أضنى عمارا لانه في فترة نقاهة من مرض ألم به . ووردت حكايات اخرى عن فضائل عمار بن ياسر كما شهد بها الرسول ولما دنت وفاة عمار قال هل منكم من يود ان ينهب الى الجنة قبل التحكيم ؟ - كما وصلنا انه لام عليا وقال له : لقد شككتنا في ديننا ووضعنا في موضع سيء وذلك بجعلنا ننتخب أعداءنا حكاما على ديننا ودمائنا، ألم يكن اجدر بك ان تتخذ تلك الخطوة قبل بداية الحرب =

فلا يمكن إذا تنازعه من طرف الفرقتين وتلقيه في الوقت نفسه من طرفهما بابن السوداء.

ويظهر ابن سبأ فيما كتبه الباحثون المحدثون كشخصية تاريخية حقيقية عدا طه حسين فانه أخذ التردد موقفاً له فهو لا يؤمن بوجود ابن سبأ أو على الأقل يرى أن الناس قد بالغوا في أمره، ودليله على ذلك أن البلاذري لم يذكر عنه شيئاً (الفتنة الكبرى 99/2) ولسنا ندري لماذا اغفل بقية المصادر الموثوق بها التي ذكرته، وكذلك الشيعة ومن نهج نهجهم فانهم نفوا وجوده زاعمين أنه عمار بن ياسر (1) حمله النواصب كل تلك الأفكار الشائعة بين الأقليات في المجتمع الاسلامي، ويبدو أن الدافع لهذا الزعم أن الشيعة ارادوا أن ينفوا نسبة بداية التشيع لعبد الله بن سبأ، وقد أظهره مؤرخو السنة وكتاب الفرق منهم كرائد للتشيع لما يلصق به من مبادئ وأفكار، فكان رد فعل الشيعة أن اعتبروا عبد الله بن سبأ اسماً وضعه الامويون لعمار بن ياسر المناهض لهم وقد ألبسوه ثوب المروق.

= وقبل مقتل طلحة والزبير اللذين سألاك نفس الامر ولكنك لم تقبل قائلاً «انك على حق وانهم مخطئون فلو كان اولئك الذين كنا نقايلهم كفاراً مشركين اذا ما كان يحق لنا ان نقف عن قتالهم حتى يعتنقوا الاسلام، ولو كانوا أهل كتاب منزل كان علينا ان نقايلهم (حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) ولو كانوا باغين ما كان لنا ان نمتنع عن قتالهم (حتى يفيثوا الى أمر الله) ثم خرج عمار مصحوباً بالمسلمين وقتلوا معاوية حتى سقطوا جميعاً شهداء وكان عددهم خمسة وعشرين من الانصار والمهاجرين» .

1) راجع مثلاً على الوردى : **وعاظ السلاطين** ، بغداد 1954 ، ص 274 - 278 ، مصطفى كامل الشيبى : **الصلة بين التصوف والتشيع** ط ثانية مصر ، ص 40 - 43 ، محمد الحسين آل كاشف الغطاء : **أصل الشيعة وأصولها** ، مكتبة العرفان ط تاسعة ، ص 84 ، على سامى النشار : **نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام** ط ثالثة ، دار المعارف 1965 ، 28/2 . والملاحظ أن المؤلف الشيعى مرتضى عسكرى صدر كتابه **عبد الله بن سبأ** ط ثانية ، القاهرة 1381 ، بمقال عاطفى عن عبد الله بن سبأ يقع بين ص 6 و 25 نفى فيه وجود ابن سبأ دون التعرض لعمار بن ياسر ، وخصص بقية الكتاب من 26 - 195 لتجريح سيف بن عمر الاسدى التميمى الذى اعتمد الطبرى فى حديثه عن ابن سبأ والسبئية .

وقصد الشيعة من وراء ذلك اظهار عمار بن ياسر بما عرف عنه الرائد الأول لمذهبهم.

ان تكن الردة قد انكفأت بموقف أبي بكر الحاسم فان المناوئين للإسلام قد استفادوا من هذه التجربة وأدركوا أن لا سبيل الى المناهضة المعجدية الا بالانقراض عليه من الداخل، فتوافد بعض من أسلم ظاهرياً من تلك الأقليات الدينية الى المراكز الاسلامية، وباشروا نشاطهم بالهاب الحماس الى المثل والدعوة الى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لينفذوا من وراء ذلك الى تقويض الدعوة من أساسها، ولان ابن سبأ كان يهودياً عاش باليمن الزاخرة بالديانات اليهودية والزرادشتية والمناوية والمزدكية فقد ثقف الى ديانتها أطرافاً منها، واختزن خياله مرارة الاجلاء اليهودي من الجزيرة العربية، فقدم الى المدينة بكل توتره وحقده وأسلم ظاهرياً وهو يصرّ على اغراق هذا المجتمع الناشئ في بحور من الفتنة والشك، فاستغل المتناقضات التي تموج بها الحياة الاسلامية وتحوّل النفوس عن الخليفة فرفع شعار (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، وفي ظله زعزع الايمان وبث آراءه التآبية وحطّم قداسة الخلافة بطعنه على الخلفاء والتبرء منهم (1) وبالامعان خاصة في ثلب عثمان واثارة الناس عليه «فانه لعنه الله أظهر الاسلام لكيد أهله فهو كان أصل اثاره الناس على عثمان رضي الله عنه» (2) حتى ان المصريين استمروا في انتقاص عثمان وشمته، الى أن ظهر بينهم الليث بن سعد، فحدثهم بفضائله فكفوا عن ذلك. (3)

إنّ هذا الصنيع الجريء قد سهّل على الرافضة من بعد ذلك الاستهانة بالصحابة والامعان في شتمهم، كما فتح باباً من التّحدي بين الأطراف المتنازعة عسر سده لفتن ووقائع لعبت فيها السيوف الدور الرئيسي،

(1) النبويختي / 27 .

(2) ابن حزم : الفصل في الملل والاهواء والنحل ، ط المثنى ببغداد ، 115/2 - المهدي المرتضى : الملل والنحل ص 7 .

(3) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، القاهرة 1931 ، 7/ 13 ،

لذلك يقول الشهرستاني «ما سل سيف في الاسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة في كل زمان» (1)؛ عمد ابن سبأ الى الطعن والرفض ومن ثم تقد الى التطرف والإغراب باتخاذ عليا مطية لآرائه الدينية المستمدة من تراث الشرق.

آمن ابن سبأ بالوصية وأعلن أن عثمان أخذ الخلافة بغير حق (2) كما أخذها الخلفتان أبوبكر وعمر من قبله فأظهر الطعن عليهم وتبرأ منهم «وقال ان عليا عليه السلام أمره بذلك فأخذه علي فساله على قوله هذا فأمر بقتله فصاح الناس اليه : يا أمير المؤمنين أقتل رجلا يدعو الى حبكم أهل البيت والى ولايتك والبراءة من أعدائك فصيرته الى المدائن» (3) وقد ذكر لأتباعه في مصر والكوفة وسواهما أن الرسول أوصى بالخلافة لعلي لذلك اعتبره النوبختي والشهرستاني أول من أظهر القول بالنص بأمامة علي (4). أراد ابن سبأ ان يحمّل الاسلام هذه الوصية لأنه أبى أن ينفصل عن معين اليهودية التي عرفت الوصية اساسا ولم يستغ الحرية التي مارسها المسلمون في اختيارهم للخليفة بعد الرسول، فركن الى يهوديته ينهل منها ويحرف بها الاسلام، ولم ينب سبب قوله بها عن كذاب الفرق، فقد قالوا بأنه نقل الوصية من اليهودية فكما أن يوشع بن نون وصي موسى فكذلك علي فهو وصي الرسول ولكل نبي وصي (5). ومعنى ذلك في نظر

(1) ائمل والنحل ، ط ثانية الانجلو مصرية القاهرة ، تحقيق بدران 22/1.

(2) الطبرى 340/4 .

(3) النوبختي / 27 ، القمى / 20 .

(4) الشهرستاني 155/1 ، النوبختي / 27 .

(5) راجع مثلا النوبختي / 27 ، البغدادى / 234 ، الشهرستاني 155/1 ،

الطبرى 340/4 ، ويورد ابن عبد ربه فى العقد الفريد 113/3 أبياتا

المشاعر الشيعي السيد الحميرى هي من أقدم ما قيل فى التغنى بالوصى :

انى ادين بما دان الوصى به

وشاركت كفه كفى بصفيها

فى سفك ما سفكت منها اذا احتضروا

وابرز الله للقسط الموازين =

ابن سبأ أن روح النبي انتقلت بوفاته الى علي مباشرة. ويرى السبئية من بعده طبقا لما أورده الشهرستاني (55/1) أن هذه الروح باقية في سلالة علي واحدا بعد واحد بهذا الشكل من التناسخ لكن أبابكر وعمر وعثمان ومن جاء بعدهم اغتصبوا الخلافة من علي وآله. ويفسر ايمان السبئية بتناسخ هذه الروح، انضمامهم بعد وفاة زعيمهم لحركة المختار الثقفي ولسائر الحركات المتطرفة الأخرى.

ان هذا الاتجاه في فهم الحكم - بالنظر الى منطق الاسلام الذي يدعو الى التحرر والرشد - يؤدي الى تعطيل العقل والى الكبت كما يظهر المجتمع في صورة قطع لا حول له ولا قوة؛ فهو اتجاه سياسي الهدف منه السيطرة على الاتباع على أنها قدر محتوم يزكي انقيادهم الموصول ويفجر لهم ينابيع الخير والحرية في ظل هذا الحكم الالهي المفروض. والدارس لتطور الفكر السياسي الاسلامي، يلحظ أن دعاة كثيرين اتخذوا لهم على مدى التاريخ هذه «الوصية» مطية لتركيز نفوذ قادتهم السياسي وصبغه هذه الصهفة الدينية المقدسة بحيث لا يتقض حكمهم مهما تكن ظروف الحياة.

وتنسب بعض المصادر القول بالوهية علي الى ابن سبأ، ومن الواضح أن الباعث على القول بالالوهية هو الغلو في علي وآل البيت وهو غلو تجالته المحبة ولو ظاهريا، وترفده عوامل متشابكة تستمد فعاليتها مما عرفه الشرق. وعلى العكس مما تدعيه كتب الفرق السنية والبحوث الحديثة، فإن الغلاة جميعا كما يبدو من استقراءنا لهم يتفقون على أن ألوهية الامام ألوهية بالمشاركة وحسب، فلم ينكروا ذات الله ولا أنه فوق كل حد ووصف، وقد صدروا

= تلك الدماء معا يا رب في عنقي
ثم اسقني مثلها امين امينا
امين من مثلهم في مثل حالهم
في فتية هاجروا في الله شاربنا
ليسوا يريدون غير الله ربهم
نعم المراد توخاه المريدونا

في رأيهم هذا عن تأثر واضح بما يراه المسيحيون والإيرانيون القدماء، فالطبرى والنوبختي أقدم من تناول السبئية لم ينسبا زعم الألوهية الى ابن سبأ، وذلك بالرغم من التفصيلات الضافية التي أمدّانا بها عن حركته المارقة. وأول من نسب التجسيد إليه أبو الحسن الأشعري (ت 330/941) الذي أورد خبرا شائعا لم يحدد له مصدرا، نصه «وذكروا عنه انه قال لعلي عليه السلام أنت أنت» (1) وكذلك الملطي (ت 377/987) في «التنبيه، مصر 1949، ص 25» إذ أورد أن السبئية بالكوفة ذهبوا إلى علي وقالوا له أنت أنت، والملاحظ أن هذا الخطاب الغنوصي يذكرنا بما كان يخاطب به الإيرانيون القدماء ملكهم «شماك بغان أي انتم الالهة»، وتبعاً لهذا كانوا يطلقون عليه «مردان بهلم» أي «العظيم الأول» واتبعهما في ذلك سائر كتّاب الفرق، إلا أن البغدادى يمتاز عنهم بتفاصيل يوزّعها بين عبد الله بن سبأ وعبد الله بن السوداء، وكذلك يفعل الاسفراييني الذي يمعن في التّقل عن البغدادى، فهو حسب الصورة المرسومة قد غالى في حبّ عليّ متدرجاً به من النبوة الى الألوهية (2) وداعياً أهل الكوفة إلى مقالته، فأمن بها جماعة منهم ذهبوا إلى علي اثر واقعة الجمل حسب ابي عمرو الكشي (3) «فلما سألهم جلية الأمر قالوا له أنت الله فأوقد عليّ ناراً لهم، ودعا مولاه قنبراً، واستتابهم فلم يتوبوا، فأمره بالقائهم في النار، وكانوا يصيحون أنت الإله حقاً، فانه لا يعذب بالنار إلاّ الله وكان عليّ يردّد :

لما رأيت الأمر أمراً منكراً أججت ناراً ودعوت قنبراً (4)

-
- (1) مقالات الاسلاميين ، تحقيق محمد محي الدين عبد المجيد ، 85/2 .
 - (2) البغدادى / 233 ، وقارن الاسفرايينى / 108 .
 - (3) معرفة أخبار الرجال ، الهند 1317 ، ص 70 .
 - (4) الملطي / 25 ، وقارن البغدادى / 233 ، الاسفرايينى / 108 ، ابن رسته : الاعلاق النفيسة ليدن 1891 ، ص 218 ، وقد انساق وراء هذا الزعم الذى لا يستقيم كثير من الباحثين المحدثين ، راجع مثلاً : يوسف خليل : حياة الأشعر فى الكوفة الى نهاية القرن الثانى للهجرة ، دار الكتاب العربى 1968 ، ص 286 ، سيده اسماعيل كاشف ، مصر فى =

فهذه الصورة تذكرنا بالأساطير والخوارق التي تعج بها الشاهنامة (1) وتدفعنا الى مزيد من مقارنة النصوص الواردة في هذا الصدد، والى الغوص في طبيعة الدعوة السبئية وما أتاحته حقاً للمتطرفة ابان الصراع، ثم ما ألقى بها من طرف كذاب الفرق الذين اختلط عليهم الأمر، فلم يفرقوا بينها وبين الغلاة المجسدة الذين ظهوروا من بعد ذلك كالبليانية والخطابية والمغيرية والأزدية وسواها، وهدفها من التجسيد الغاء القرآن والاحتكام الى قوة وهمية ممثلة في شخص خرافي حلّ به النور الالهي، هذا النور الذي ظلّ متهاقاً عبر تاريخ الشرق القديم يطوي الأزمان والمسافات وينقل من دين الى دين وهو يكتسح الظلمة، ومن ملك الى آخر وهو يبي للاتباع وهم الانتساب للعظمة والخلود !. لم يعرف ابن سبأ الدعوة الى ألوهية علي فلم يذكر الطبري والنوبختي ذلك؛ على أن المسدّد الزمني بينه وبين كتاب الفرق من أهل القرن الرابع ومن جاء بعدهم قد أتاح لفكرة التجسيد التي نادى بها الغلاة أن تتأكد وأن تضاف اليه خطأ، وقد ساعد على هذا أمران : (1) ظهور التجسيد في القرن الثاني في الكوفة وريثة المدائن ممّا سهل على كتاب الفرق أن يرجعوه الى ابن سبأ الذي كان أوّل من اتخذها مسرحاً لنشاطه

(2) ان التطرف الذي وسمت به السبئية قد أتاح للمؤرخين وكتاب الفرق ان يطلقوا هذا الوصف على الغلاة في مختلف العصور (2) وقد هيأ هذا لاختلاط

= عصر الولاة ، مكتبة النهضة المصرية ، ص 66 ، على حسنى الخربوطى : تاريخ العراق فى ظل الحكم الاموى ، دار المعارف مصر 1959 ، مصطفى الشكعة : اسلام بلا مذهب ، دار العلم 1961 ، ص 114 ، محمود قاسم دراسات فى الفلسفة الاسلامية ، ط ثالثة ، دار المعارف 1970 ، ص 216 . HENRI LAOUST : Les Schismes dans l'Islam. P. 15
CLAUDE CAHEN : L'Islam des origines au debut de l'empire Ottoman, Paris 1970, P.P. 47-48.

(1) لا نريد ان نتبسط هنا فى هذه النقطة ، فحسب القارىء ان يرجع الى الفصل الذى كتبناه عن الشاهنامة فى كتابنا الادب الفارسى فى العصر الغزنوى ، تونس 1965) ليتأكد من أهمية هذه الملاحظة .
(2) راجع مثلاً ، ابن عبد ربه 406/2 .

الآراء وتداخلها بحيث نسب التجسيد الى ابن سبأ وأتباعه.
إن إيمان السبئية بنظام الحكم الديوقراطي وانطباع آرائهم بطابع تتداخل فيه الأسطورة والديانات التي زخر بها الشرق، ألزماهم برفض موت علي واعتناق الغيبة اصرارا منهم على الظفر المرتقب ومغالبة لهذه النكبة التي سرلها "الاعداء"، فعلي في نظرهم يمثل الرمز الحي لكل آرائهم ومن ثم غدا السبيل الوحيدة لانتصارهم، لذلك ضوا به على الموت ورفضوا خبر قتل ابن ملجم له، فقد قال عبد الله بن سبأ وجماعته لمن اخبرهم بذلك «كذبت يا عدو الله لو جئتنا بدماعه في سبعين صرة فأقمت على قتله سبعين عدلا ما صدقناك» (1) وهبوا اثر ذلك لدار علي هبوب الوثائق بحياته «فقال لهم من حضر من أهله وأصحابه وولده سبحانه الله ما علمتم أن أمير المؤمنين قد استشهد قالوا اذا لنعلم أنه لم يقتل ولا يموت حتى يسوق العرب بسيفه وسوطه كما قادهم بحجته وبرهانه، وانه ليسمع النجوى ويعرف تحت الديار العتل ! ويلمع في الظلام كما يلمع السيف الصقيل الحسام» (2) ؛ وأقدم المصادر التي تحدثنا عن السبئية لا تكشف عن كيفية هذه الغيبة فلم يرد عنها شيء في الطبري والنوبختي والقمي والاشعري، وأول من تحدث عنها البغدادي في القرن الخامس دون ان يحدد مصدرا لذلك، وحججنا في الأخذ بما أورده أن الطابع الاسطوري الذي يكتنف الغيبة ينسجم تماما مع مترع السبئية وجنوحها الى النهل من ينابيع الشرق، جاء في كتاب الفرق بين الفرق «فلما قتل علي رضي الله عنه زعم ابن سبأ أن المقتول لم يكن عليا وإنما كان شيطانا تصور للناس في صورة علي وأن عليا صعد الى السماء كما صعد إليها عيسى بن مريم عليه السلام وقال كما كذبت اليهود والنصارى في دعواها قتل عيسى كذلك كذبت النواصب والخوارج في دعواها قتل علي وإنما رأت اليهود والنصارى شخصا مصلوبا شبهوه بعيسى، كذلك القائلون بقتل علي رأوا قتيلا يشبه عليا فظنوا أنه علي، وعلي قد صعد الى

(1) القمي / 20 ، النوبختي / 28 .

(2) القمي / 21 .

السماء وأنه سينزل إلى الدنيا وينتقم من أعدائه، ورغم بعض السبئية أن علياً في السحاب وأن الرعد صوته والبرق سوطه، ومن سمع من هؤلاء صوت الرعد قال : عليك السلام يا أمير المؤمنين.... وفي هذه الطائفة قال اسحاق بن سويد العدوي قصيدة برىء فيها من الخوارج والروافض والقدرية منها هذه الأبيات :

برئت من الخوارج لست منهم من الغزّال منهم وابن بسباب
ومن قوم إذا ذكروا علياً يردّون السلام على السحاب
ولكني أحبّ بكل قلبى وواعلم أن ذاك من الصواب (1)
ان فكرة الغيبة يطويها عند السبئية هذا المنحى الاسطورى الذي يتفق تماماً مع ما شاع قديماً، والذي يرضي نزوع الانصار لما فيه من عروج «بالغائب» الى السماء بعد أن مل في نظرهم القيام بدوره آنذاك في مجتمع غادر مضطرب، تمزقه الفتن والاطماع، ولم تكن الغيبة غيبة انهزام وذلة وانما هي غيبة عروج وترقب، يبدو فيها الغائب في سموه حسب بعض السبئية متخفياً في السحاب الرعد صوته (2) والبرق سوطه «البغدادى/234» أو تبسمه «الشهرستاني/55» (3) وهو في هذا وذاك الأمل الذي يبعث

(1) البغدادى/233 - 234 . واضح أن الشاعر سمي المعتزلة (خوارج) لاتفاق الفريقين في القول بتخليد مرتكب الكبيرة في النار ، ولم يفظن البغدادى لهذه التسمية فظن أن اطلاقها هنا على حقيقته . والغزّال لقب لواصل بن عطاء وابن باب كنية لعمر بن عبيد .

(2) احتضن المصريون آراء ابن سبأ حين جاءهم داعياً ، ثم ما لبثوا ان عزفوا عنها في القرن الثاني تحت تأثير المدرسة المالكية النشطة ، ولم يبق من هذه الآراء الا اثر لا يمس جوهر العقيدة ظل سارياً حتى يومنا هذا هو تذكر على اذا ما دمدم الرعد فقد اورد محمد محي الدين عبد الحميد في تحقيقه لمقالات الاسلاميين لابي الحسن الاشعري ج ١ ص 85 ثم 1 ما يلي « ولا زلت ارى اطفال القاهرة يجرون وقت هطول الامطار ويصيحون في جريهم » يا بركة على زود ،

(3) تأثرت الفرق الغالية المختلفة بهذا الرأي السبئى من ذلك ما ذهب اليه بيان بن سمعان التميمي في تفسير قوله تعالى (هل ينظرون الا ان يأتهم الله فى ظلل من الغمام) من ان المراد بالله على بن ابي طالب فهو الذى يأتى فى الظل ، الرعد صوته والبرق تبسمه . الشهرستاني . 136/1

في نفوس الأنصار القوة والثبات برغم ما يعتصرهم من اضطهاد من طرف مغتصبي الحكم، وعلى هذا النسق ظل السبئية يحلمون بعودة الغائب من بين أطباق السحاب تماما كما حلم اليعقوبية (اصحاب محمد بن يعقوب) من بعدهم بنفس هذه العودة لعلي (1) لتخليص العالم من الشرور والآثام. فإذا ما تقصينا مصدر هذه الفكرة وجدنا ان المانوية لم يقرؤا بمقتل ماني من طرف الملك الساساني بهرام واعتصموا بغيبته في السماء وقالوا بانه سيعود الى الأرض ليملاها عدلا كما ملئت جورا، وكذلك فعل المزدكية حين قتل انوشيروان مزدك، انتحلوا غيبته في السماء وظلوا يحلمون بعودته ليخلص الأرض من الشرور (2). ويكاد أهل الديانات الشائعة قبل الاسلام يجمعون على غيبة منقذهم (3). فالمسيحيون يعتقدون أن المسيح حي في السماء، واليهود يرون أن (إلياس) ما يزال حيا كما اعتقد البراهمة بحياة (براهما) والبوذيون بخلود بوذا ؛ عرف السبئية كل ذلك في الكوفة وريثة المدائن، وصدروا عنه في آرائهم وتوزعوا في ذلك على قسمين : قسم أبطن دياناته الموروثة وأراد عن قصد أن يصنع الاسلام بهذه الغيبة وما ارتبط بها ؛ وقسم دخل الى الاسلام محاولا التوفيق بينه وبين هذه الغيبة التي تموج في نفسه وفي المجتمع الكوفي المضطرب، وساعد على ذلك، هذه الفوضى التي مزقت المجتمع ووضعت حدا لوحده الحقيقية. ولكي يبرّر السبئية حياة عليّ وغيبته فقد نحوا منحى اسطوريا ألفناه في الملاحم، يتفق مع متزعمهم، وقالوا بأن المقتول علي يد ابن ملجم لم يكن عليا وانما كان شيطانا تصوّر للناس في صورة عليّ، ومع هذا فلم يسلم ابن ملجم من الآعن، وقد كفى كذاب الفرق ردّ عبد القاهر البغدادي عليهم «قلنا للسبئية إن

(1) أبو المعالي : بيان الاديان ترجمه عن الفارسية يحيى الحشّاب « فصلة » من مجلة كلية الاداب جامعة القاهرة - 1957 ، ص 40 .

(2) يحيى الحشّاب : « في اسلام الفرس » من كتاب تراث فارس ترجمة محمد كفافي وآخرين ، ط دار احباء الكتب العربية 1959 ،

ص 6 -

(3) الكاظمي القزويني : الامام المنتظر ، العرفان صيدا ، 1374 ، ص 48-49

ان كان مقتول عبد الرحمان بن ملجم شيطانا تصور للناس في صورة علي فلم لعنتم ابن ملجم ؟ وهلا مدحتموه ؟ فان قاتل الشيطان محمود على فعله غير مذموم، وقلنا لهم كيف تصح دعواهم : ان الرعد صوت علي والبرق سوطه، وكان صوت الرعد مسموعا والبرق محسوسا في زمن الفلاسفة قبل زمان الاسلام ؟ ولهذا ذكروا الرعد والبرق في كتبهم واختلفوا في علتهم» (1) والامر لا يستدعي من وجهة النظر السبئي الى الحمجاج والمنطق فان التفكير الغيبي والمتزع الاسطوري وآثار الديانات السابقة قد تأصلت في المذهب وأخضبت هذا الخيال الميثولوجي برؤى ملحمية متجلية ظلت طابعا لأغلب فرق الشيعة التي ظهرت من بعد ذلك.

ويتوج السبئية هذه الآراء بايمانهم بالرجعة والمهدية كطريق للاستيلاء على الحكم واجتثاث النواصب والخوارج والمارقين جميعا من الوجود، والرجعة والمهدية وجهان لحقيقة واحدة هي تمسك الاشيع بأهداب الأمل المرتقب في غمرة من الهزائم والآلام، ويجب أن نفرق أساسا بين الرجعة والتناسخ في ظل ارتباط وفرة من الناس بالتراث الشائع، وتأكد الاختلاف خاصة حين أصاب الفيلسوف الآراء التي روجها السبئية وأضرابهم، فالرجعة عودة الشخص بنفسه مرة أخرى الى الحياة بعد موته أو غيبته (2) والتناسخ عودة الروح من غير جسد أو تقمصها في جسد آخر بعد موت صاحبها ؛

- (1) الفرق بين الفرق / 236 ، وقارن الاسفراييني / 109 .
- (2) لقد وهم محمد جابر عبد العال في كتابه حركات الشيعة المتطرفين . ط السنة المحمدية . القاهرة 1954 ص 23 تع 2 ، حين قصر الرجعة على عودة الشخص الى الحياة بعد الموت فقط وصرف نظره عن العودة اثر الغيبة . والملاحظ ان هذه العودة الحاصلة اثر الموت او الغيبة آمن بها الى جانب السبئية كثير من الفرق الغالية والمعتدلة ، فالمختارفة آمنوا بغيبة محمد بن الحنفية ورجعته ، والحربية اعتقدوا ان رئيسهم عبد الله بن عمرو بن حرب الكندي حي لم يموت وسيرجع ، وبيان بن سمعان قال ان عليا غائب في ظلل من الغمام ، كما ذهب النابوسية الى ان جعفر الصادق حي ولن يموت حتى يظهر ، وآمنت الاسماعيلية والاثنى عشرية بالرجعة بعد الغيبة . راجع مثلا الشهرستاني / 133 ،

ومند أن روج السبئية آراءهم في الكوفة انزعت عقيدة الرجعة في نفوس ذويها وظلّوا أكثر إيماناً بها من غيرها، وتجسيم الكوفيين لها من بعد ذلك يكشف عن الأثر الممتد الذي تركه السبئية في الوسط الكوفي ؛ أورد ابن قتيبة في عيون الأخبار (1) حديثاً لاسماعيل بن مسلم المحدث، نصّه «كنت بالكوفة فإذا قوم من جبراني يكثرون الدخول على رجل، فقلت من هذا الذي تدخلون عليه ؟ فقالوا هذا عليّ بن أبي طالب فقلت ادخلوني معكم فمضيت معهم وخبأت معي سوطاً تحت ثيابي، فدخلت فإذا شيخ أصلع بطين فقلت له : أنت عليّ بن أبي طالب فأوماً برأسه أي نعم، فأخرجت السوط فمازلت أقتعه وهو يقول لتأوى لتأوى (!) فقلت لهم يا فسقة : عليّ بن أبي طالب نبطي، ثم قلت له ويلك ما قصتك ؟ ! قال جعلت فداك، أنا رجل من أهل السواد أخذني هؤلاء فقالوا أنت عليّ بن أبي طالب» بينما ظلت المهدية حلماً رائقاً لم يعرف طريقه الى التحقق، ومع هذا فلا يمكن الفصل بين العقيدتين لما بينهما من التلازم اذ لا تتحقق المهدية بدون رجعة ولا فائدة في الرجعة دون مهدية ؛ وقد صدرتا فعلاً عن عبد الله ابن سبأ نفسه وأخرجهما مخرجا اسطورياً خلاباً، ظلّ مناطاً لأخيلة الغلاة وأهوائهم على مرّ العصور. فهو حسب الطبرى قد وضع لأصحابه الرجعة فتكلموا فيها (2) بعد أن لقنهم في شأنها كلاماً هو في نظرنا من صميم الخيال الملحمي الرقراق ؛ اذ قال لهم : حين ينزل عليّ من السماء تنبّع له «في مسجد الكوفة عينان تفيض احدهما عسلاً والاخرى سمناً ويفترف منهما شيعته» (3) وغدت هذه القالة منطلقاً لأخيلة الشيعة الغلاة منهم والمعتدلة على السواء. وتصدى البغدادى كعادته لتفنيد هذا الزعم السبئي بما استمدّه من التاريخ الشيعي نفسه فاذا كان عليّ قد عصم من الموت وحظي بما حظي به فكيف بالحسين وأصحابه بكرّ بلاء يموتون عطشا ولم

(1) ط دار الكتب 14/2 .

(2) تاريخ الرسل والملوڪ 340/4 .

(3) البغدادى / 235 ، الاسفرايينى / 109 .

ينبغي لهم الماء فضلا عن العسل والسمن ؟ ذلك أن هذه الظاهرة ينبغي لها أن تتسع لو جارينا منزع السبئية فتشمل الأسرة العلوية كلها ، وهو ما يرفضه واقعها التاريخي المليء بالدماء والأحزان. على أن هذه الفرقة الغالية استمرت في توليد الاخلية واستلهاهم التراث ، فقررت أن عليا يظهر بعد ذلك ويملك الأرض بحذاقها فينتقم من أعدائه (1) أو يخلص أولا للعرب - وفقا للمنطق الشعبي الذي اعتنقه القومي والنوبختي - فيسوقهم بسيفه وسوطه (2) ويملا الأرض عدلا كما ملئت جورا باعتباراه المهدي المنتظر ، وأنداك يكون الخلاص وتكون الغلبة.

ان هذا الرأي في حقيقته رأي سياسي المقصود منه بث الاطمئنان في نفوس اتباع الدعوة المنهزمين حتى لا يسأموا ولا يفروا من ميدان الدعوة بل يظلون على ولائهم وعلى انقيادهم : اعينهم في السماء وقلوبهم تخفق مترقبة عودة المهدي المنقذ ؛ كما أن هذا الفيض من العسل والسمن لم يكن الا تحريكا لشراة الاتباع ، ووعدا لهم بالاحلام الزائفة كي يقيموا على الوفاء للدعوة ، ليتمكن القادة من توجيههم الى كل ميدان خدمة لمصالحهم وحفاظا على نفوذهم ، وكما أشرنا فان المهدية متأصلة في التراث الشرقي ومنغرس في قلوب الجماعات المضطهدة ، الآملة في عودة المهدي يخلصها من جور السلطة الحاكمة ومروقها (3) . ان التناقض الظاهري الذي يتمثل في ايمان ابن سبأ بالمهدية وبعدم جواز التقية في الآن نفسه لا يمثل مشكلا حين نتعمق في فهم الدعوة السبئية على يد مؤسسها وفي تقصي هذا التطور الذي أصابها من بعده ، فابن سبأ دعا الى آرائه دون أن يعتمد إلى فلسفتها أو البحث عما بينها من ترابط أو تنافر ، لأنه كان يصدر فيها عن تأثير بخليط من الآراء الموروثة أراد اشاعتها بين المسلمين ؛ والا فان الايمان بالمهدية

(1) الاسفراييني / 108 .

(2) القمي / 21 ، النوبختي / 27 .

(3) راجع اسماء المهديين في مختلف العصور في : جولد تسيهر : العقيدة والشريعة في الاسلام ترجمة محمد يوسف موسى ومن معه ط ثانية ، دار الكتب الحديثة ومكتبة المثنى 1959 ، ص 214 - 220 .

— كرد — فعل لايمان الحاكمين بالحق الالهي — يقتضي منطقيا الاعتصام بالثقفة والانصياع للحاكم الجائر مع الاقرار بجوره في انتظار رجوع المهدي. وفي مرحلة تالية أدرك الشيعة ومن بينهم السبئية الذين اندسوا في مختلف الفرق أنه لا يمكن أن تتعايش الفكرتان حفاظا على سلامة المبدأ وصلابة الانتصار، وان يكن المختار الثقفي قد ثار ودعا الى مهديّة محمد بن الحنفية تأثرا منه بالسبئية التي انضمت اليه في تلك الفترة المبكرة، فان ما جدّ في صفوف الشيعة من بعده كان كفيلا بايقاف هذا التهافت الملحوظ. ومن ثم اقترنت المهديّة بالثقفة وبالأذعان للحكم الجائر الى أن يظهر المهدي المنتظر. وهذا ما نلاحظه عند عديد من فرق الشيعة، كما ارتبطت الثورة على غاصبي الحكم برفض المهديّة ذلك أن الذي يضع حدا للجور في نظر الزيدية والخوارج هو السيف وليس المهدي، او قل ان الخروج بالسيف في نظر هؤلاء من أجل تقويض الظلم وتحقيق العدل هو المهدي بعينه.

تلك هي السبئية وآراؤها عمدنا إلى تاصيلها كي يدرك الدارسون للفرق أنه لا سبيل إلى فهم أصول التشيع دون تقصي التراث الشرقي والوقوف على أصوله وكي يدركوا أيضا أن الحياة الاسلامية لم تكن حياة منزلة وإنما كانت مجالا لتداخل الآراء وتسربها من طرف أولئك الذين ألفوا حضارات وديانات مختلفة عجّت بها رقعة الشرق كالمسيحية واليهودية والزرادشتية والمناوية والمزدكية وسواها ؛ فاجتروا معهم في ظل الاسلام هذه الديانات محاولين تلوين الاسلام بها حتى يخلقوا التوافق بين ما كانوا عليه وما هم فيه. ومع هذا فلم تكن هذه الفرقة مجسدة بيد أن ما في متزعاها من تطرف ومروق ونشدان للماضي يدل على انها فرقة غالية مشطّة نفذت بأرائها الى طيآت الفكر الشيعي الغالي والمقصد على السواء فاثرت فيه تأثيرا بعيدا بالرغم من رفضه لها ظاهريا.